



كما أن للعمل الصالح في السر والطاعة التي تكون بين العبد وربه ولا يعلم بها أحد من الناس "الخبيئة الصالحة".... مكانة عظيمة عند الله ومنزلة رفيعة يجد العبد أثراها وأجرها أحوج ما يكون إليها يوم القيمة فإن للذنوب في الخلوات والإصرار على مناجزة الله بالمعاصي كلما خلا بنفسه وغابت عنه أعين الناس أثراها السلبي الخطير على عبادات العبد وطاعاته وحسناته .

يكفي أن يصفي المسلم جيدا إلى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يبين فيه خطر ذنوب الخلوات وما لها الكارثي على مستقبله الحقيقي ليدرك ضرورة الإقلاع عن هذه الآفة قبل فوات الأوان .

ففي الحديث عَنْ ثَوْبَانَ رضيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : (لَأَعْلَمُنَّ أَفْوَاماً مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالٍ تِهَامَةَ بِيَضْنَا فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُرَا) قَالَ ثَوْبَانُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا ، جَلَّهُمْ لَنَا أَنَّ لَا تَكُونُ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ ، قَالَ : (أَمَّا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ وَمِنْ جُلُّتِكُمْ وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ وَلَكِنَّهُمْ أَفْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ أَنْتَهُكُوهَا) سنن ابن ماجه برقم 4245 وصححه الألباني .

قال الحافظ ابن الجوزي رحمه الله : "الحذر الحذر من الذنوب خصوصاً ذنوب الخلوات فإن المبارزة لله تعالى تُسقط العبد

أخطر ما في ذنوب الخلوات وقوع العبد بجريرة جعل الله تعالى أهون الناظرين إليه وسقوطه في معصية تعظيم شأن الناس والخشية منهم من أن يروه على معصيته وذنبه على حساب مراقبة الله وعظمته وخشيته في قلبه ، الأمر الذي قد يقع في صدق إيمانه ويمس حقيقة يقينه بإطلاع عليه في سره كما علانيته .

قال ابن عباس رضي الله عنه : يا صاحب الذنب لا تأمن من سوء عاقبته ولما يتبع الذنب أعظم من الذنب إذا علمته فإن قلة حيائلك ممَن على اليمين وعلى الشمال وأنت على الذنب أعظم من الذنب الذي عملته وحذرك من الريح إذا حرَّكت ستراً بآياك وأنت على الذنب ولا يضطرب فوادك من نظر الله إليك أعظم من الذنب إذا علمته (حديث موقوف / حلية الأولياء برقم 1180)

ومن هنا يمكن فهم عقوبة إحباط أعمال صالحة ونسف عبادات وطاعات كجبار تهامة وجعلها هباء منثورا كجزاء على ذنوب الخلوات كما جاء في حديث ثوبان رضي الله عنه إذ الأمر هنا يتعدى حدود مجرد الذنب العابر إلى عتبة النفاق وداء ومستنقع الرياء في الأعمال .

الوصف النبوي الدقيق لسمة وحال أولئك يجعلهم أقرب إلى المنافقين بأعمالهم المرائين بظاهراتهم منهم للمخلصين المبتغين وجه الله تعالى بها ، والدليل على ذلك أنهم "إذا خلوا بمحارم الله انتهكوا" ، والانتهاك قرين الاستحلال والأمن من مكر الله وعقوبته ، وهو ما يتنافي مع حال المؤمن الذي وإن غلت عليه شهوته وأوقعته بالمعصية والذنب فهو لا يعصيه مستحلا نواهيه وزواجره وإنما يعصيه تحت وطأة غلبة الشهوة وهزيمته أمام إغرائها وإغرائها ، وضعف ارتقائه لمقام الإحسان وحسن مراقبة مالك الأكون .

لا شك أن تحذير المؤمن من الوقوع في ذنوب الخلوات والظهور بمظهر العابد الناسك أمام الخلق والناس بينما ينتهك محارم الله في خلواته ويتجرأ على معصيته حين يكون وحده...لا يعني أن المجاهرة بالذنوب وإعلان المعصية واقترافها أمام أعين الناس دون حياء وخجل منهم أو خوف وخشية من الله مسموح به في دين الله ، فالمجاهر بالمعصية أمام إثمين : إثم المعصية ذاتها وإثم المجاهرة بها .

ففي الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (كُلُّ أُمَّيٍّ مُعَائِيٍّ إِلَّا مُجَاهِرٌ وَإِنَّ مِنَ الْمُجَاهِرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَالًا ثُمَّ يُصْبِحَ وَقَدْ سَرَّهُ اللَّهُ عَلَيْهِ فَيَقُولَ يَا فُلَانُ عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا وَقَدْ بَاتَ يَسْتَرُهُ رَبُّهُ وَيُصْبِحُ يَكْسِبُ سِرْرَ اللَّهِ عَنْهُ) صحيح البخاري برقم 6069

إن من سمات أصحاب النفوس الطاهرة والقلوب الندية والأفئدة الندية استواء سريرتهم وعلانيتهم ، فحالهم أمام الناس كالحالم في خلوتهم ، وخشيتهم من الله في الظاهر كخشيتهم منه في الباطن ، لا يفسدون طاعات العلانية بمعصية السر ولا يحطون أعمالهم الصالحة الظاهرة بذنوب الخلوات الخفية .

قال مُطَرِّف بن الشَّحِير: "إِذَا اسْتَوَتْ سَرِيرَةُ الْعَبْدِ وَعَلَانِيَتُهُ؛ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: هَذَا عَبْدِي حَقًّا".

قد لا تكون عقوبة ذهاب الحسنات الكثيرة وإحباط الأعمال الصالحة الوفيرة يوم القيمة هي الجزاء الوحيد لمن قرر ذنب الخلوات ، فهناك التهديد بعقوبة دنيوية عاجلة قد تكون رادعة للمبتلين بهذا الداء ألا وهي الفضيحة في الدنيا بإظهار ما أسروه وكشف ما أخفوه عن أعين الناس فقد ورد في الأثر عن عثمان رضي الله عنه أنه قال : ما أَسَرَّ عَبْدٌ سَرِيرَةً إِلَّا أَظْهَرَهَا اللَّهُ عَلَى قَسَمَاتٍ وَجْهَهُ وَفُلَتَاتِ لِسَانِهِ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًا فَشَرٌّ .

المصادر:

المسلم